

خطاب العتبات: دراسة في المرجعية التراثية العربية

The Threshold Speech: A Study in the Arabic Heritage Reference

د/أسماء بن عيسى

جامعة عين تموشنت بلحاج بوشعيب (الجزائر)

benisafasmaa@gmail.com ،

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2022 / 12 / 29	2022 / 12 / 20	2022 / 12 / 07

ملخص البحث

تروم هذه الورقة البحثية مقارنة الجهاز النقدي المفاهيمي لخطاب العتبات، ضمن إطاره المعرفي المؤسس لنسق من المعرفة، يأخذ بعين الاعتبار كل ما يضفي جلالاً إلى النص من حيث القيمة الشكلية والدلالية. وليست غايتنا عرض المفاهيم فحسب، بل استقطاب النظر إلى الاهتمام بتفاصيلها من حيث المرجعية المعرفية التراثية كموضوع أساس يطرحه هذا العمل في بنائه المعرفي. إذ نسعى إلى الوقوف على بعض ملامح النص الموازي في تراثنا العربي؛ استجابة للتساؤل المؤسس: هل تفتن العرب لهذا النسق المعرفي؟.

فالمراد إذن هو تجسيد التقابل المعرفي بين إجراءاته في النقد العربي المعاصر، وما هو كائن في تراثنا العربي؛ ذلك أنّ المتمعن في عديد المصنفات العربية كما يقول الإدريسي، سيلحظ مدى تطابق أفكار العرب وتصوراتهم مع المنطلقات النظرية، التي قامت عليها أدبيات «عتبات النص» في الفكر الحديث، ما يعني أنهم كانوا يميزون في وقت مبكر جداً من ثقافتهم بين مستويين من الخطاب؛ أساس و موازي¹. علماً أنّ هذا السبق لم يكن بالفهم نفسه من أنّ العتبات هي مفاتيح نقدية للنصوص، بل لا يتعدى كونها ضرورة للكتابة وسنن التأليف، فضلاً عن كونها ظاهرة لا مفهوماً نقدياً قائماً بذاته.

Abstract

الكلمات المفتاحية: النقد، العتبات، المرجعية المعرفية، التراث العربي.

This paper aims to approach the critical conceptual apparatus of the threshold discourse, within its epistemological framework that establishes a system of knowledge that takes into account everything that bestows majesty on the text in terms of formal and semantic value. The traditional cognitive reference as a basic topic raised by this work in its cognitive construction. As we seek to identify some features of the parallel text in our Arab heritage; In response to the founding question: Are the Arabs aware of this knowledge system?.

What is meant, then, is the embodiment of the epistemological contrast between its procedures in contemporary Arab criticism, and what is in our Arab heritage. Hadith, which means that they were distinguishing very early in their culture between two levels of discourse; Basis and Parallel 1. Noting that this precedent was not based on the same understanding that thresholds are critical keys to texts, rather it does not go beyond being a necessity for writing and the rules of authorship, as well as being a phenomenon and not a self-contained critical concept.

Key words: Criticism, thresholds, knowledge reference, Arab heritage.

1. مقدمة:

شهدت الأبحاث النقدية في السنوات الأخيرة ولا تزال اهتماما كبيرا بدراس العتبات، أو ما يعرف بهوامش النص أو النص الموازي وغيرها من المصطلحات، ضمن ترسانة المفاهيم الغربية الوافدة إلى ثقافتنا النقدية العربية. فما لبثت الدراسات تتزايد في الأقطار العربية تجسيدا لهذا المفهوم، الذي أطل برأسه محاولا القبض على جانب معتبر من الدلالات التي تتوارى خلف عبارات النص.

و هذا؛ حين شهد النقد المعاصر عبر سيرورته المطلقة تطورا كبيرا وملحوظا في التعامل مع النص الإبداعي؛ من البنية إلى المحيط؛ بعد أن تقدّم الفرنسي جيرار جنيت بمشروعه النقدي، الذي يعبر عن أفق اهتمامه المتجاوز للنص إلى ما يعرف بالتعالّي النصّي، ضمن خمسة أنماط أبرزها المناس.

فكان هذا الطرح من بين القضايا المعرفية التي ارتبطت بتطوير القراءة النقدية الفاحصة للنصوص، التي لم تعد قاصرة على المتن، بل طالت منطقة بحثية متميزة، لها شأنها في فهم النص وتأويله.

ولعل أبرز ما يميز هذا الحقل المعرفي هو أن أنساقه، تحتل الكثير من التعدد والتنوع، لذا ينبغي الالتفات إلى جميع ما يشتمل عليه نص من شبكة عتبات، ولدت من تجربة كتابته، سواء ما كان منها خارجيا أو داخليا. ومنه نميّز بين نوعين هما النص المحيط الخارجي، حيث «يندرج في هذا النطاق كل ما نجده مثبتا في صفحة الغلاف الخارجية»²، بينما يشمل النص المحيط الداخلي «كلا من الإهداء والخطاب التقديمي والنصوص التوجيهية والعناوين الداخلية والحواشي...»³.

وينضاف إليهما نسق عتباتي آخر، يتجلى في النص الفوقي، الذي لا يمثل غايتنا في هذا العمل -إذ لا يتواجد ماديا ملحقا بالكتاب ذاته، وإنما يتشكل بعيدا عنه، حيث يفصل بينهما البعد المكاني والزمني، من دراسات نشرت ضمن أوعية المعلومات المختلفة.

2- الإطار النظري التأسيسي:

يراد بالعتبات تلك البنيات اللغوية والأيقونية التي تتقدّم المتون، وتعقبها؛ لكي تنتج خطابات واصفة لها⁴، فهي تنسج خطابا يضيء النص الداخلي، مما يساهم في فهم خصوصيته، وتحديد مقاصده الدلالية؛ فأى قراءة للنص بدونها، قاصرة، ومن شأنها أن تلحق ضررا كبيرا بفهم أبعاده.

فهي أولا وقبل كل شيء موضوع يُقدّم لنا لنراه، ما يفرض ضرورة إيلاء الأهمية لدورها، ضمن هيكل النص لحظة التلقي والاستهلاك؛ باعتبارها إرسالية موجّهة للقراء، وليست مجرد محطات قرائية وبصرية عابرة.

وعليه ما يجعل منها «موضوعا جديرا بالاحتفال، ومادة خصبة للنقد عموما، والنقد الإيديولوجي بكيفية حصريّة، وذلك لسببين؛ أولهما، يرتبط بأهميتها المحددة بمواقعها الإستراتيجية وبوظائفها وأدوارها، وثانيهما يعود إلى علاقتها النوعية بالعالم و بالنص الذي تنكتب على مشارفه وتشكل تخومه»⁵.

فقد أضحت نصيّة النّص الأدبي الحديث، تُبنى انطلاقاً من عتباته، التي ظلّت بمعزل عن الاهتمام النقدي لردح من الزمن؛ و ذلك لسوء التقدير، الذي لحقها من الناقد التقليدي، الذي كان شغله الشاغل ربط الأدب بما هو خارجي، في إطار الجو السياسي

الساخن، و ما صاحبه من الوعي الأيديولوجي الحاد⁶، الأمر الذي جعله يغيب دور المحيطات التي تحيط بالنص، و إغفال قيمتها الوظيفية الدلالية.

فمع انقلاب الرؤية غدا التعامل مع هذه السياجات بنظرة أقل تهميشاً وأكثر وعياً، لاسيما بعد الانفتاح على تطورات الصيرورة النقدية العالمية، و ما قدّمه جنيت من تنوّع معرفي ومنهجي، شكّل فتحاً نقدياً، دخل على إثره النقد مرحلة البدائل والتحوّلات المعرفية.

هذا ولا يزال الموضوع في حاجة ماسة إلى من يسبر أغواره عميقاً جداً في الثقافة العربية القديمة، ويعيد النظر في دراسته، ويصفه وصفاً دقيقاً كل عتبة على حدة، وما تنطوي عليه من ثراء وخصوصية معرفية لدى أسلافنا القدامى. ذلك ما نروم تحقيق جزء يسير منه في هذه الورقة البحثية المتواضعة، وحسبنا أن نشتغل على بعض العتبات، بحثاً في مرجعياتها العربية التراثية؛ على غرار عتبة الإهداء، وعتبة العنوان، و عتبة الخطاب التقديمي، وعتبة البداية، وعتبة النهاية، و عتبة التجنيس.

3-الإطار التطبيقي/العتبات والمرجعية العربية التراثية:

نسعى في هذه الجزئية العملية إلى تجسيد التقابل بين إجراءات العتبات في النقد المعاصر، وما هو كائن في تراثنا العربي، من معطيات معرفية لهذا الحقل النقدي كظاهرة، ذلك أنه لم يكن ثمة نظرية بالمعنى الحقيقي، فمثلاً يقال، فإنّ الظاهرة تسبق المصطلح، مع العلم أن هذا السبق كما أشرنا سابقاً لم يكن بالفهم نفسه المعاصر.

ولئن نضطلع بهذا العمل، فذلك على سبيل المقاربة، في تحديد المرجعية العربية لكل عتبة نصية، وليس على سبيل القطع، بدء بعتبة الإهداء، التي لا تخلو من القصدية، سواء في انتقاء عبارات المهدي أو في اختيار المعنى بها. فالكاتب كما يقول أشهبون « بهذا الإهداء أو ذاك، يحاول خلق جسر من التواصل بين النص و القارئ. هذا الجسر، وإن كان واهياً كما يظهر من الوهلة الأولى، ولا يتعدى بضعة أسطر لدى البعض، بل بضع كلمات لدى البعض الآخر، إلا أنه يظلّ موجهاً إضافياً من موجّهات معرفة الكاتب والنص على حد سواء»⁷.

فهذه العتبة التكريمية الاحتفائية من النصوص الموازية، التي تساعد القارئ على فهم المتن الإبداعي وتفسيره، ولنا أن نضرب مثلاً إهداء الروائي الطاهر وطار « في روايته الشمعة والدهاليز، الذي هو إهداء موجّه إلى شخصية الراحل يوسف سبتي، الذي يحمل بعض المواصفات نفسها، التي تتصف بها الشخصية البطلة للرواية، مما يؤكد أنه المقصود من الأحداث، وإن نفى الكاتب ذلك جملة وتفصيلاً.

*الإهداء والمرجعية السياسية في التراث العربي:

لعلّ من أبرز مرجعيات الإهداء في التراث الإنساني العامّ هي المرجعية العربية العريقة، وضمن هذا المسلك المعرفي، سنحاول إجلاء ما يحيل على هذه المرجعية، التي ارتبطت أساساً بالإطار السياسي الذي يؤطّرها؛ أبرزها ظاهرتي التكسّب، و الآداب السلطانية.

أ/الإهداء كظاهرة في شعر التكسّب:

فالشاعر المعتلّ لم يجد وسيلةً للتقرّب من الحكّام، ودوس بساطهم العظيم، سوى استعمال الشعر كصنعة؛

لكي يغدقوا عليه بالأموال والخيرات. فقد كان الشعر موردَ رزقٍ لدى بعض شعراء العرب، إذ أُطلق على الظاهرة كما هو معلوم تسمية «شعر التكسب».

والتي عرفت اتساعاً في العصرين الأموي والعباسي، إذ يرجع ذلك إلى «طبيعة نظام الحكم القائم آنذاك، ولوجود الأحزاب السياسية الكثيرة، فكان الشاعر حين يمدح الخليفة، مغدقا عليه الخصال الحميدة، كان يقوم بمهام الإعلام في التنويه عن روائع الأعمال، التي قدمها الخليفة للناس، وكان الخلفاء يحتفون بالشاعر، حيث يظهرهم بمظهر الإنسان المتمكن من حكمه، والذي يحظى بحب الجماهير وتأييدها، وان الشاعر حينذاك، كان يتكلم باسم تلك الشعوب، معبراً عن مؤازرتها للحكام، ولقد انتشرت قصائد المديح في العصر الأموي، وزادت كثيراً في العصر العباسي، لأن الشاعر كان يجد فيها القناة الوحيدة للتكسب، والحصول على المال»⁸.

وليس المقام هنا مقام حصرٍ للشعراء المتكسبين أو مقام معالجة الظاهرة بتفصيلٍ دقيق، فتلك قضية أخرى ليست هدفنا، ولكن العبرة بالكيفية التي تقترب من المعطى المعرفي في النقد المعاصر، إذ مثلت القصائد المهداة شكلاً من أشكال إهداء النسخة بالمفهوم الحديث، وإن كانت القصيدة نسخة صوتية مسموعة.

فقد كان الشاعر القديم يعتمد على الأسلوب المباشر، بقراءة القصيدة العصماء على مرأى الممدوح ومسمعه، بينما الإهداء الحديث، يخضع لبرتوكول التأليف، عن طريق خط يد المؤلف للقارئ، الذي يشتري نسخة من العمل. فالاتفاق في الجوهر، وهو الاحتفاء بالمعني والتباين في قناة الاتصال.

ب/ الإهداء كظاهرة في الآداب السلطانية:

يراد بالآداب السلطانية نمطا من الكتابة السياسية، يدور في جوهره حول العلاقة التي تربط بين الحاكم والمحكوم، علماً أنّ معظم الآداب السلطانية في الفكر العربي، هي نتاج التأثر بالثقافة الفارسية.

هذا النمط، الذي لا يخرج في الغالب عن أربعة أشكال من الإهداء؛ أولها أن يبادر المؤلف من تلقاء ذاته بالكتابة إلى سلطان، والثاني أن يأمر السلطان مؤلفاً بالكتابة له، والثالث هو أن يهدي المؤلف كتابه إلى كل من أتاه الله سلطاناً أما الرابع، فهو أن يكتب السلطان بنفسه مؤلفه هدية لولي عهده⁹.

ولعل ما يعيننا منها هو الشكل الثالث، حين يتوجه الكاتب بالإهداء إلى كل من أتاه الله سلطة، ولنا في ذلك مثال الماوردي في مؤلفه «نصيحة الملوك» الذي جاء فيه:

فكتبنا كتابنا هذا نصيحة للملوك ، وإظهاراً لمحبتهم ، وإشفاقاً لهم على
أنفسهم ورعاياهم ، ورجونا أنْ منْ وقع إليه كتابنا هذا بما فيه من صادق النصيحة
وبليغ الموعظة ، وأعطاه منْ عنايته حظّه بالنظر فيه والتدبر له والإصغاء إليه ، علّم
أنّا من أعظم أوليائه له نصيحة ، وأبلغ خدّمه وأعوانه له معونة .

فالملاحظ إذن على هذه النماذج كظاهرة تحققت في تراثنا العربي، وغيرها كثير لا يتسع المقام لذكره، أنها تنحو نحو الإهداء العام بمفهوم النقد المعاصر، والذي يراد به ما يتم توجيهه إلى «شخصيات غير محددة، أو إهداء إلى هيئات أو منظمات أو مؤسسات أو أحزاب سياسية، أو رموز وطنية لها مكانتها في المجتمع»¹⁰.

فوجه الشبه هو غياب التحديد، فضلا عن وجود ميزة مشتركة، هي مكانة المهدي إليه في المجتمع، ومن بين أمثلته المعاصرة تمثيلا لا حصرا ما أوردته قمر الكيلاني في مجموعتها «عالم بلا حدود»، إذ جاء نص الإهداء، الذي أهده إلى كل عربي فلسطيني على النحو التالي:

«إلى «فلسطيني» صغير.. صغير.. قضت عليه الحرب قبل أن يولد.. وإلى فلسطينيين آخرين صغار...

يولدون رغم الدم والنار والعذاب»¹¹

تلك-إذن- بعض الشذرات عن المرجعية العربية للإهداء، لنقف بعدها عند عتبة العنوان، التي لم تحظ عتبة من العتبات بمثل الاهتمام الذي حظيت به، فهي للكتاب كالروح للجسد، إذ تمثل سلطة النص وواجهته الإعلامية.

* العنوان والمرجعية التراثية الشعرية البديلة:

تتجسد المرجعية التراثية للعنوان وفق شكلين؛ أحدهما مباشر، يظهر من خلال إشارات صريحة، والآخر يتجلى في ملامح الاستخلاص من الدارسين المحدثين.

فمن الشكل الأول قول الجاحظ (ت255هـ) الذي حدّد شروطا للكتابة: «وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكلة، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتى يخرمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه»¹².

و هذا الصولي أبو بكر (ت335هـ)، ممن تشكّل لديهم الوعي بضرورة اتباع سنن خاصة في التأليف، قد وعى أهمية العتبة بقوله: «والأحسن في عنوان الكتاب إلى الرئيس أن يعظم الخط، ويفخمه»¹³.

ليمتدّ الاهتمام إلى غاية القرن التاسع، حين قدّم المقريزي (ت845هـ) الرؤوس الثمانية من بينها العنوان، بقوله: «اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت بأن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة صحة الكتاب ومن أي صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه»¹⁴.

أمّا الشكل الثاني فهو ما يقوم على استخلاص بعض الملامح من الدارسين، في صورة ما استخلصه يوسف الإدريسي من أبيات لقيط بن يعمر التي يقول فيها:

سلام في الصحيفة من لقيط*** إلى من بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم*** فلا يشغلکم سوق النقاد

أناكم منهم ستون ألفاً*** يزجون الكتاب كالجراد

على حنق أتينكم، فهذا*** أوان هلاككم كهلاك عاد¹⁵

فهذه الأبيات ترتبط بمسألة غياب العنوان في جانب من جوانب تراثنا العربي ألا وهو الشعر وإيجاد البديل، و مرد ذلك إلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك. فالقصائد الشعرية القديمة، لم تعرف بعناوين محددة، في انتقال النصوص وتداولها بين العرب.

فقد «ظلت عناية الشعراء محصورة في تجويد المستويات البنائية والجمالية لنصوصهم؛ مقابل هذا لم يول الخطاب النقدي القديم أية أهمية لمكون العنوان في حدود ارتباطاته بالقصيدة، وفي إمكانيات بنائه وحدود تأويله، بقدر ما انصب اهتمام النقد على الأبعاد اللغوية، والبلاغية، والدلالية، والعروضية، وراح يستكشف المعاني ويخوض في قضايا الطبع والتكلف، وعمود الشعر، والسرقات، وغيرها»¹⁶.

فعنونة القصائد، لم تظهر إلا في العصر الحديث، على يد الشعراء المعاصرين؛ نتيجة تأثرهم بالثقافة الغربية، وهو ما يؤكد قول الغدامي: «والعناوين في القصائد ما هي إلا بدعة حديثة، أخذ بها شعراؤنا محاكاة لشعراء الغرب- و الرومانسيين منهم خاصة- وقد مضى العرف الشعري عندنا لخمس عشرة قرناً أو تزيد دون أن يقلد القصائد عناوين»¹⁷.

ففي ظل هذا الغياب كان لزاماً من البدائل، التي تجري مجرى العنوان، في التعبير عن المقصود، مما يؤكد قيمته، وإن لم يكن مقصوداً باللفظ الصريح.

بيد أن هذا البديل يعتوره إشكال تنوع الأغراض؛ فرغم أن «المطلع بالنسبة للقصيدة العربية، في غياب عنوان يحدد موضوعها، بمثابة البناء الأولي القاعدي الذي يلعب وظيفة تحديد قصدية الخطاب أو التمهيد لها، وهو ما يمكن نعتة بالمستوى التيمي (الموضوعي) للمطلع، إذ إنه يؤطر الموضوع أو يشير إليه ويوحى به»¹⁸، فإن «القصائد ذات الأغراض المتعددة، قد لا تستجيب لهذا الطرح»¹⁹. وهو من قبيل ما قد يحدث في بعض النصوص الحديثة، رغم توفر العناوين ظهورياً واستقلالية، فهي «لا تحدد موضوع القصيدة، ولا توحى به، وكأنها دلائل فارغة، والقصد منها خلق جمالية «التنافر» وإرباك المتلقي»²⁰.

تلك- إذن- بعض ملامح المرجعية العربية للعنوان، وإن لم يكن بشكله الإفرادي المستقل، إلا أننا نلمس منها قيمة هذه العتبة، التي لا يمكن لأي كاتب كان من القدامى أو المحدثين الاستغناء عنها.

*الخطاب التقديمي والمرجعية التداولية في التراث العربي:

تستند المقدمة إلى المرجعية التراثية التداولية التخاطبية بين المؤلف والمتلقي، فالقداًمى قد سبقوا المحدثين منذ قرون بعيدة جداً، في التفطن لقيمة هذه العتبة. فمن يمارس حفريات التراث، سيقف على الإشارات التنظيرية وكذا الممارسات، التي خص بها العلماء الخطاب المقدماتي قديماً.

فمن حيث النمط الأول الإشاري، لا يفوتنا أن نستحضر نصّ التهانوي الطويل، في عرضه المفصل لمكوّنات

المقدمة، إذ جاء نصّه كالآتي²¹:

على من شرع في شرح كتاب ما أن يتعرض في صدره لأشياء قبل الشروع في المقصود يسميها قدماء الحكماء الرؤوس الثمانية، أحدها: الغرض من تدوين العلم أو تحصيله (...) وثانيها: المنفعة (...) وهي الفائدة المعتد بها ليتحمل المشقة في تحصيله ولا يعرض له فتور في طلبه. وثالثها: السمة وهي عنوان الكتاب يكون عند الناظر إجمال ما يفصله الغرض (...) ورابعها: المؤلف وهو مصنف الكتاب ليركن قلب المتعلم إليه في قبول كلامه والاعتماد عليه باختلاف ذلك باختلاف المصنفين. وخامسها: أنه من أي علم هو؛ أي من اليقينيات أو الظنيات، من النظريات أو العمليات، من الشرعيات أو غيرها ليطالب المتعلم ما يليق به من المسائل المطلوبة له. وسادسها: أنه أية مرتبة هو، أي بيان مرتبته فيما بين العلوم إما باعتبار عموم موضوعه أو خصوصه أو باعتبار توقفه على علم آخر أو عدم توقفه عليه أو باعتبار الأهمية أو الشرف ليقدم تحصيله على ما يجب أو يستحسن تقديمه عليه، ويؤخر تحصيله عما يجب أو يستحسن تأخير عنه. وسابعها: القسمة، وهي بيان أجزاء العلوم وأبوابه ليطالب المتعلم في كل باب منها ما يتعلق به ولا يضيع وقته في تحصيل مطالب لا تتعلق به كما يقال: كتابنا هذا مرتب على مقدمة وباين وخاتمة. وهذا الثاني كثير شائع لا يخلو عنه كتاب. وثامنها: الأنحاء التعليمية، وهي أنحاء مستحسنة في طرق التعليم. أحدها التقسيم وهو التكتير من فوق إلى أسفل؛ وثانيها التحليل، وهو عكسه، أي التكتير من أسفل إلى فوق؛ أي من أخص إلى ما هو أعم (...)»⁽¹⁾.

أمّا النمط الثاني العملي فيتجسّد من خلال حضور المقدمة في شكل ممارسة فعلية، وقد «ومن أهمّ الكتب التي كانت تتضمن مقدمات افتتاحية، نذكر منها: كتاب (طبقات فحو الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي، ومقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، ومقدمة كتاب (شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي»²²، وغيرها.

وما يلاحظ أنّ العرب لم يطلقوا مصطلح «مقدمة» على صنيعهم، بل الذي ثبت عنهم هو استعمال مصطلحات أخرى قد تبدو متداخلة؛ على غرار الخطبة، والديباجة، والفتحة، والتمهيد، والاستهلال، والتصدير وغيرها بيد أنّه بالإمكان التمييز بين هذه المصطلحات، حتى وإن لم يكن في معاجم اللغة ما يدلّ على الفرق الحاسم بينها.

فيما عدا «بعض الاستعمالات التي تبدو كأنها مختصة بحقل معرفي ما، من ذلك مثلاً مصطلح «الفتحة» الذي يكاد يختص بالدراسات القرآنية، إذ نسمعهم يقولون «فواتح السور» ويعنون بها أوائل السور، وأم الكتاب يقال لها فاتحة القرآن»²³. وتختص كل من لفظي «المطلع» و«الاستهلال» بالنصوص الشعرية الكلاسيكية

التي درج فيها الشعراء العرب القدامى على استهلال قصائدهم بذكر الديار ووصف الرحلة و الراحلة قبل التطرّق إلى الغرض الرئيس²⁴. و عن مصطلحات « التمهيد » و « المدخل » و « التصدير » فالأغلب على الظن أنّها ترد متلازمة، و لا تكاد تخرج عن معنى المقدمة، و إن كان هناك بعض الدارسين، ممن سعوا إلى التمييز، و إقامة الفرق بينها²⁵.

تلك- إذن- المرجعية التراثية للمقدمة، التي تعد مدخلا رئيسيا إلى أغوار المتن، إذ هي بمثابة بطاقة الهوية التي تكشف لنا عن هويته؛ حين يقوم المؤلف بإعطاء بعض التوجيهات، و المفاتيح المهمة التي تسعف في قراءته و تأويله، وفق منظور النقد المعاصر، وهي سنة واجبة لها مواصفاتها لدى أسلافنا القدامى.

*التجنيس والمرجعية التراثية التصنيفية:

يعدّ التجنيس مفهوما أدبيا و نقديا و ثقافيا، يهدف أساسا إلى «تصنيف الإبداعات الأدبية حسب مجموعة من المعايير والمقولات التنميطية كالمضمون، والأسلوب، والسجل، والشكل»²⁶.

فعن مرجعيته، نجد فكرة التجنيس واضحة لدى أبي هلال العسكري (ت395هـ) في متنه الشهير (الصناعتين)، إذ يتيح عنوانه فرصة التقاط بواكير الوعي بالجنس الأدبي، أو البحث في قضية الأنواع الأدبية؛ لكونه قد تضمن إحالة صريحة علي صناعتين هما الشعر و النثر.

فالمؤلف من ثمار ما أُلّف في البلاغة، إذ يشفي غليل القارئ، في معرفة ما يحتاج إليه المرء في صناعة الكلام نثره ونظمه، في عشرة أبواب موزعة على ثلاثة وخمسين فصلا.

هذا و قد حدّد رؤيته النقدية الخاصة في تجنيس الأدب، ضمن الباب الرابع من كتابه حين قال: «أجناس الكلام (ثلاثة) الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلي حسن التأليف وجودة التركيب...»²⁷.

و من ثم فإن القدامى، قد أدركوا أن لكل نوع أدبي أسلوبا، في إطار الأسلوب، الذي يميز هذا الجنس عن ذاك، حيث يرجع ذلك إلى إحساسهم القوي بضرورة التجنيس.

وينضاف إلى كلّ ما سبق عتبة البداية، ونظيرتها النهاية، أو ما يطلق عليه الفاتحة النصيّة والخاتمة، إذ لا ينبغي أن نضرب صفحا عنهما في هذا المقام التأصيلي، فلا شكّ في اعتناء النقاد العرب بهاتين العتبتين اعتناء ظاهرا للعيان، نلمسه في إدراك قيمة البداية كأوّل معطى تأصيلي من هاتين الموازيتين النصيتين المتلازمتين من حيث الحضور النقدي تحليليا ودراسة، والمنفصلتين مسافة.

فالبداية على مستوى السرد، وفق المفهوم المعاصر هي «قطعة نصية تبدأ من العتبة المفضية إلى التخيل و (تفترض إسناد الكلام إلى سارد خيالي يوازيه متقبلٌ سرديّ يصغي إليه، و هو الآخر متخيل) و تنتهي بحدوث أوّل قطيعة هامة في مستوى النص»²⁸.

فهي إذن ذات موقعي استراتيجي، إذ نلفي مرجعيتها التراثية التي ترتبط أساسا بفكرة الافتتاح، ولا نغالي إن قلنا بأن العرب القدامى كانوا أكثر اهتماما بهذه العتبة التي تجسّدت لديهم شكلا ومصطلحا، ومدى تركيزهم على حسن صياغتها وصلتها بالبيان.

فهذا أبو هلال العسكري يقول: «أحسنوا معشر الكتاب الابتدءات فإنهن دلائل البيان و قالوا ينبغي للشاعر أن يحتز في أشعار هو مفتتح أقواله»²⁹. ويقول حازم القرطاجني (ت684هـ): «كان لفواتح الفصول بذلك بهاء و شهرة و ازديان حتى كأنها بذلك ذوات غرر»³⁰.

و فيما يتعلق بالخاتمة النصية أو النهاية، التي يبني فيها المؤلف اكتمال الخطاب، فإن مرجعيتها، تتجلى، في ما ذهب إليه ابن رشيقي القيرواني (ت463هـ) الذي قال: «و أمّا الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يتبقى في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما لا تمكن الزيادة عليهن ولا يأتي بعده أحسن منه، و إذا كان أول الشعر مفتاحا له، و جب أن يكون الآخر قفلا عليه»³¹.

صفوة القول هي تأكيد أصالة هذا المفهوم، أي خطاب العتبات ومرجعيتها في تراثنا العربي، فأسلافنا القدامى كما يبدو، قد احتفوا بالعتبات كظاهرة، قبل أن يتطرق إليها الغربيون كجهاز نقدي مستقل.

4-الخاتمة:

خلصت قراءتنا الفاحصة للتصورات العربية القديمة حول المفهوم العتباتي، ومقارنتها بمعطيات النقد المعاصر إلى جملة من النتائج نختزلها فيما يلي:

-لقد مثلت العتبات العصب المركزي للكتابة والتأليف في التراث العربي.

-يزاوج حضور العتبات في تراثنا بين المنطوق إلقاء ونظيره المكتوب.

-يتجسّد حضور العتبات لدى أسلافنا من خلال النثر والنظم.

-يجمع هذا الحضور بين الإشارات التنظيرية و الممارسة العملية الفعلية.

وختاماً نعود لنؤكد مرّة ثانية أن الموضوع لا يزال بحاجة إلى من يسبر أغواره عميقا جدا، بتناول كل عتبة تفصيلا وتدقيقا في تراثنا العربي، من أجل بناء مرجعية نقدية عربية، على الأقل من هذا الجانب المهم، ضمن كينونة النقد الأدبي بشكل عام.

إِحَالَاتُ الْبَحْثِ

1. ينظر: يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص27.
2. عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016، ص38.
3. المرجع نفسه، ص. ن.
4. ينظر: يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ص21.
5. عبد الجليل الأودي، قراءة في هوامش وليمة لأعشاب البحر، مجلة فضاءات، المغرب، العددان: 3/2، 1996، ص37.
6. ينظر: عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، ص15.
7. المرجع نفسه، ص203.
8. صبيحة شبر، التكسب بالقصيدة العربية، الموقع الآتي: https://www.ahewar.org/debat/show_art.asp?aid=590265، تاريخ الدخول: 06 ديسمبر 2022، الساعة 14.00.
9. ينظر: عز الدين العلام، الآداب السلطانية دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عالم المعرفة، الكويت، فبراير، 2006، ص49.
10. عائشة آغا، التفاعل النصي في الشعر الجزائري المعاصر-جيل التسعينات أنموذجا-، بحث مقد لنيل درجة الدكتوراه، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، 2018/2017، ص112.
11. باسمه درمش، عتبات النص، علامات، جدة، المجلد16، 61، 2007، ص78.
12. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مصطفى باي الحلي، مصر، ط2، 1965، 98/1.
13. أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكُتّاب، تعليق: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، مصر، (د. ط)، 1341هـ، 144/1.
14. أحمد بن علي تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دارالكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، 9/1.
15. يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ص44.
16. محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص47.
17. عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2006، ص235.
18. المرجع نفسه، ص55.
19. المرجع نفسه، ص. ن.
20. المرجع نفسه، ص. ن.
21. يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ص48.
22. جميل حمداوي، شعرية النص الموازي، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، طبعة 2014، ص194.
23. عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص -دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص35.
24. ينظر: المرجع نفسه، ص35-36.
25. ينظر: المرجع نفسه، ص36.
26. جميل حمداوي: القصة القصيرة جدا و سؤال التجنيس، الموقع الآتي: <http://www.adabislami.org/magazine/2018/01/3264/182>، تاريخ الدخول: 20 ماي 2021، الساعة 15:15.
27. أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص: 197.
28. جليلة الطرطر، في شعرية الفاتحة النصية، حنا مينا نموذجا، مجلة علامات في النقد، المملكة السعودية، مج29، العدد8، 1998، ص: 145.
29. أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، ص: 431.
30. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد لحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1986، ص: 297.
31. حازم القيرواني: أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط3، 1963، 215/1.

مراجع البحث

أولا/الكتب:

1. أحمد بن علي تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
2. أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتاب، تعليق: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، مصر، (د. ط)، 1341هـ.
3. جميل حمداوي، شعرية النص الموازي، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، طبعة 2014.
4. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، تقديم و تحقيق: محمد لحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1986.
5. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مصطفى بابي الحلي، مصر، ط2، 1965.
6. عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص - دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000.
7. عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2006.
8. عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016.
9. عز الدين العلام، الآداب السلطانية دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عالم المعرفة، الكويت، فبراير، 2006.
10. محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.
11. أبو هلال العسكري، الصناعات: الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986.
12. يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2015.

ثانيا/المقالات المنشورة:

1. باسمه درمش، عتبات النص، علامات، جدة، المجلد 16، 61، 2007.
2. جلييلة الطيرطر، في شعرية الفاتحة النصية، حنا مينا نموذجاً، مجلة علامات في النقد، المملكة السعودية، مج29، العدد8، 1998.
3. عبد الجليل الأزدي، قراءة في هوامش وليمة لأعشاب البحر، مجلة فضاءات، المغرب، العددان: 3/2، 1996.

ثالثا/الرسائل الجامعية:

عائشة آغا، التفاعل النصي في الشعر الجزائري المعاصر-جيل التسعينات أنموذجاً-، بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، 2017/2018

رابعا/المواقع الإلكترونية:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=590265>

<http://www.adabislami.org/magazine/2018/01/3264/182>